صنَّارة

كانت لحظة جارحة الصدق، لئيمة الوجه، خارقة للزمن، كيف يجمعهما القدر بهذا العنف..؟ كيف يشدُّ عشرين عاماً كاملة لتصبح في قبضة الكف..؟

كثيرة هي العلاقات التي تنتهي بغموض وحيرة تجعلنا لا نعي ما يجري، وكأنَّ بساطاً يسحب من تحتنا نفقد عبره حتى المقاومة، فإذا مرَّ الزمن وحاصرنا شريط الذكريات تساءلنا بحرقة.. إن كانت مشيئة الله أن تنتهي هذه العلاقة.. فلمَ انتهت هكذا..؟ بكل ذاك الغموض..؟ لمَ خلَّفنا وراءنا كلَّ إشارات الاستفهام مضاءة..؟ لمَ تركنا الفراق على أحجيته ولم نحلَّ اللغز..؟ أكان يمكن أن يكون أفضل مما كان..؟

تلفُّ بها التساؤلات ثم تتركها في دوَّامة الإبهام، وهي تتفرَّج على نفسها كيف تتحرَّك كدمى العرائس المقيَّدة بخيوط ترسم لها مسارها ومصيرها، بل تحدد لها مساحة خشبة المسرح التي يسمح لها بالتجوُّل عبرها.

تتحرَّى الالتزام بالواقع، تتفرَّس ملامحه سريعاً وهو يقدم نحوها.. هيئة النعمة تفغم مظهره، الشيب غزا الشقرة، وكأن شعره سنابل قمح غنية، الاكتناز ملأ عقده الرابع، بات جذَّاباً أكثر من ذي قبل، أم تراه القدر ما زال يجمع تضاريس قلبها على أنواء روحه فتشعر هي بذات التناغم الذي كانت تشعر به كلما التقته..؟

أشارت إليه بالجلوس وهي تخفي تعابير وجهها حتى أحسَّت به كقطعة لبَّاد ميتة، ألحَّت على الله تعالى ألا يعرفها، فهي أصلاً لم ترسل إليه كي يعرفها.

جلست وراء مكتبها، طلبت فنجاني قهوة بلا سكر.. لمعت عيناه للحظة..كيف أدركت أنَّ قهوته بلا سكر من غير أن تسأله..؟.. لعلَّه تخمين صائب..!

الطالبات في صفوفهن، والهدوء يعمُّ أجواء المدرسة إلا من بعض الخطوات في الممرات، ومن طرقات المطر على زجاج نافذة المكتب، وكأن المطر يرطمها بالواقع مع كل قطرة.

اهتمام نظراته ودماثة كلماته جعلها تغار من نفسها، فهو ما زال لا يعرفها، وقد تعمَّدت إخفاء اللوحة التي تظهر اسمها، لمَ يهتمُّ بها..؟ ما زال هو.. هو.. جذَّاب الجنس الآخر، محترف التعامل مع المرأة، يمنحها الإعجاب الذي تريد.. بلطف وحنكة..! وكأن عشرين

عاماً لم تضنِ روحه، وكأن قطار حياته لم يحمل في مقطوراته أطناناً من الهموم كالتي حملتها..!! كان ينتشي زهواً بالجاذبية التي يمتلكها، ويكتفي بها، فهو يستلذُّ بمتعته النظيفة ويفتخر، يكتفي بأن يرى عيونهن تلمع في عينيه.. وقلوبهن تخفق له، كان صياداً ماهراً يجيد رمي الصنارة ويرجع للوراء بحرفية، فتتهافت الجائعات لالتقاط الطعم وكل منهن تظنُّ أن الطعم لها فقط، كان بارعاً في إيهامهن بذلك، وملاحة وجهه يسَّرت له تلك المهمة، حتى إذا اشتد حبل الصنارة سحب من طعم واحد صيداً وافراً، يتأمَّلهن.. يشدُّ صدره، يفتخر بتسجيله أرقاماً قياسية، يلقيهنَّ جانباً، ثم يعود لرمي الصنارة من جديد، كان يدور بين الكليات فلا يُعرف له مستقر ولا يُعرف له اختصاص، يريد أن ينوِّع فرائسه، لا يتعب أبداً..!

- خيراً يا أستاذة، أرسلت في طلبي..!

تبسَّمت.. تنحنحت.. جاء فنجانا القهوة في وقتهما، سحبت نفساً عميقاً، تمالكت نفسها وحاولت أن تخترق حيرتها في انتقاء التمهيد، فقد كانت البداية واحدة..

- أنت تعلم يا أستاذ أن ابنتك من الطالبات المجدات والملتزمات في مدرستنا، وأنا شخصياً أكنُّ لها اهتماماً خاصاً لحسن خلقها مع صعوبة ظرفها، لا سيما بعد انفصالكما أنت وأمها، يؤسفني التدخل

بحياتك الخاصة، لكن.. بوصفي المرشدة النفسية للطالبات، فمن واجبي أن أسعى إلى إصلاح ما أمكن من أوضاعهن.

كان يتأملها كمن يبحث عن شيء من الماضي، صوتها ليس بغريب عليه أبداً، ملامح وجهها كأنها مألوفة لديه مع مسحة من غبار الزمن، كأنه لم يعِ ما قالته جيداً..

نظرت إليه مع تأملاته.. في الوقت الذي كانت فيه مع كل نسمة عليل تستقبل سلاماته، ومع كل ليلة تستشعر أرقه وسهاده، ومع كل طرقة باب أو رنَّة هاتف تشتمُّ رائحة عطره، في الوقت الذي كانت تعتقد فيه أنها بالنسبة إليه أنثى فريدة من نوعها، وأنه غارق في بحر حبها، وأنه أسير كل ما فيها، في ذاك الوقت.. كان هناك.. يبحث من بين كثيرات.. لم تكن هي بينهن.. ولا أي واحدة ممن التقمت الطعم، وقد وجد التي يريد، أنثى.. خالية من كل ما تميزت هي به، لكنها بعيدة تمام البعد عن صنارته.

- شذى يا أستاذ أحمد تمر حالياً بسن حرجة، وتحتاج إلى جرعات إضافية من الحب والحنان.

وتضيع كلماتها مع صور ماضيها المنهك حيث كانت تهرب إلى كليتها فتلقى بابتسامته الدافئة مهداً وثيراً لقلبها المضطرب، لم تكن تطلب الكثير، فقط أن

يوليها شيئاً من اهتمامه.. فقد كانت متعبة، متعبة كثيراً، ولم تجد غير طيفه حولها يسكِّن أوجاعها ويملأ فراغ روحها.

أجابها وما زال الموضوع مبهماً لديه..

- صحيح أن أمها غابت عن المنزل، لكن الوضع بات مستقراً أكثر بكثير مما مضى..!

تبسَّمت وهي تجيبه : هذا بالنسبة إليك، فقد تزوَّجت مرة أخرى وبالمعايير السابقة نفسها..!

نظر مستغرباً.. أي معايير تقصدين..؟

.. ما هذا..؟ من محور الحديث.. هو أم ابنته ؟.. تلعثمت قليلاً ثم أدارت دفّة الحديث..

- لاحظت منذ فترة على شذى تغيّر بعض تصرفاتها، وكثرة شرودها بين صديقاتها وتراجع معدّلاتها الدراسية فحاولت أن أحتويها وأفهم منها.. وفي الحقيقة.. فوجئت..!

لأول مرة منذ عرفته تجد اهتماماً حقيقياً ينبع من عينيه، كانتا هذه المرة عيني أب مليئتين بالخوف والشفقة، لأول مرة تراه بغير صورة جذاب الأنثى، هو الآن بصورته الإنسانية.. أب كمعظم الآباء يخشى على ابنته مفسداتِ الزمن.

رمقها بفضول وتوتر.. وكأنه هذه المرة هو من التقم طعم صنارتها، لأول مرة تستحوذ على جميع اهتمامه.. لأول مرة كان بكليّته معها.. ولو للحظات فقد أسرت فكره وعقله ونظراته.. ولكن.. في الحقيقة.. لا لسواد عينيها.. وإنما من أجل ابنته..

- لا أريد أن أقلقك، أنت رجل جامعي ومثقف، وتدرك جيداً أن الشباب في سن المراهقة يميلون إلى الجنس الآخر بحكم فطرتهم، إضافة إلى أنهم يرون في الجنس الآخر مرتعاً يلقون خارجه واقعهم وظروفهم.

بدا الانفعال عليه وهو يقول : عفواً.. ما الذي تقصدينه من كل ما ذكرتِ..؟

- أرجو أن تهدأ قليلاً يا أستاذ أحمد، الأمر بسيط وفي بدايته.. هناك شاب يحاول استجرار شذى بحجة أنه يشعر بمعاناتها ويريد راحتها، طبعاً شذى فتاة ملتزمة وخلوقة، لكن عاطفتها قوية وهناك شرخ في حياتها، وأخشى عليها أن.. قاطعها محتداً..

- عفواً يا أستاذة..! تقولين أمر بسيط..؟! ابنتي لا يمكن أن تتصرّف كما تدّعين، ثم.. من أين لها أن تعرفه وهي من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، أنا ربيتها على الالتزام والأخلاق الجيدة..

حاولت تهدئته..

- وتربيتك لم تضع هدراً يا أستاذ، لكن هذا لا يكفي.. الفتاة في هذه السن تحتاج إلى الكثير من الاحتواء، عليك أن تصغي إليها.. تسمع لهمومها، غياب أمها شرخ قلبها، ومن ثمّ غيابك المعنوي.. حتماً ستكون عرضة لأول من يصغي إليها أياً كان..وستجد الكثير ممن يستمع.. وقلة.. قلة هم الذين حقاً يشعرون..!

صمتت.. نظرت في عينيه.. كان الغضب قد عكّر صفاء الزرقة فيهما..

تفرّسها مليّاً، وكأنّه التقط ضالّته.. هو ليس بالغبي، كلماتها تمشي في طريقين..قالت له بأسى وبعينين برّاقتين: إن كانت ظروف الفتاة صعبة فهذا لا يبيح استغلال ضعفها، لا يحلّ لنا أن نحتوي عصفوراً وجيف القلب مفزوع الصدر لنقصّ من ريشه..

كأنها تضعه في قفص اتهام، تريد أن تفرغ عليه كل إرشاداتها وتوجيهاتها، فهو نموذج لمن يوزّع حسنه وملاحته وابتساماته خارج المنزل، فإذا دخله خلع القناع، وغطّ في النوم..!!

كان الأستاذ أحمد ما يزال غارقاً في بحر من الذهول، لابد أنها كانت إحدى معجباته الكثيرات، تأتي هي وتعلمه أن ابنته ستكون صيداً، لكن.. هذه المرة الصنارة ليست صنارته..!

- شذى فتاة رائعة لكنها تفتقر إلى العاطفة، أعلم جيداً أن أخلاقها ستحميها من الرذيلة بإذن الله، لكنها بغنى عن الكلام المعسول، ما زالت صغيرة على اكتشاف أكاذيب الحياة، لا تكن أول من يفتح لها رصيداً من الآلام والذكريات والندم على كل خفقة قلب مهدورة، لا أريدها أن تصحو يوماً لتكتشف أنها لديه مثل كثيرات غيرها، ولن يفكر يوماً في اختيارها لأنه لا يقّدر حبها، الذي يأتي بسهولة تهون قيمته..!!

أخرج قلبها كل عصارات الألم، تغرغرت الدمعة في عينيها..

- احتوها يا أستاذ أحمد، اغمرها بعطفك الذي غمرت به كثيرات حتى نسيتها من بينهن..

ألجم لسانه، هو لا يدري أقدّمت له خدمة العمر..؟ أم أنها صفعته صفعة العمر..؟

لقد تذكّرها جيداً، لكنه ما زال يبحث عن اسمها، تباً لهذه الذاكرة المحشوّة حشواً بالأسماء..!

وقفت من وراء مكتبها وقد اهتزّت كل ذرة في كيانها، أدارت ظهرها إلى النافذة هاربة من وجومه فيها.. كان المطر قد توقف.. والزجاج مازال يسحُّ الدموع بصمت..

- شذى أمانة في عنقك يا أستاذ أحمد، هي

رعيّتك أمام الله فأحسن الرعاية، شكراً لك، انتهت المقابلة.

نهض من مجلسه وقد قطعت بإعراضها عنه كل حبال الذاكرة، توجّه إلى الخارج مذهولاً.. جلست على كرسيها مذهولة..

يظلّ المرء طوال سنين حياته يبحث عن الحقيقة، عن سر الحياة، عن كنه التعامل مع البشر، حتى إذا توصّل إلى اليقين، واكتشف سر النكهة الفريدة، تكون لحظة الاكتشاف هي آخر لحظات الحياة، فالحياة لا تُفهم حتى تنتهي، واليقين لا يأتي إلا عندما المسار ينقضي..!